

رجب أبـو سريـة

إهـــــداء

إلى : فاضل الربيعي، راسم المدهون، خليل عادي، علي الكردي ، ماهر رجا ، بسام عمر ، صبحي حليمة . . .

وكل أولئك الأصدقاء الذين انطوت عليهم الذاكرة .

رجب أبو سرية

في المدينة الغريبة

حين خطى خطوته الأولى ، سمع وشوشات خافتة ، تنسل إلى داخله ، فتثير في نفسه شيئا من الإضطراب والقلق، أسرع خطاه كأنه يهرب منها ، إلا أن إرتخاء حلكة الظلام في المحيط الذي حوله ، زاد من وقعها المثير في نفسه.

الصمت والسكون والهدوء القاتل الذي يملأ المكان ألقى في نفسه شيئا من الريبة ، فصار شيئا فشيئا ، ودونما وعي منه ، يتدثر في ثيابه ، وينقبض على نفسه ، حتى تخيل أنه ليس سوى ساقين تحثان خطاهما إلى المجهول .

همهمة الوشوشات علت ، حتى صار عصيا عليه تجاهلها ، أو إعتبارها شيئا من بنات أفكاره ، أو خروجا مسموعا لهواجسه ومخاوفه ، المتأتية من مشاعر الوحدة في مدينة غريبة يلفها الظلام والموت .

... فجأة توقف ، بعد أن إصطدم بنتوء ، خاله شاهدا لقبر . إرتجف حين سمع الصوت ، يجيئه من تحت التراب ، أنينا صارخا .. آخ ..

أطلق ساقيه للريح ، وركض بأقصى سرعته ، حتى إذا وصل حافة المدينة ، إصطدم في البعيد بكلبة تتلوى ، لها أربعة أرجل ، ودونما رأس ، تربض على بوابة المخرج الذي لاح له كآخر مطاف لركضه الهروبي ..

تلفت وراءه ، فظهرت له الخيالات أناسا أو كائنات تتشح بالسواد ، تتصايح بلغة غير مفهومة ، وكانت إندفاعات الهواء الناجمة عن تصايحها ، تحدث حركة هوائية إندفعت حتى وصلت كأنها ريح لاهثة .

لم تعد فيه أعصاب تحتمل حالة الرعب الشديد ، الذي نجم عن الصداع الذي ألّم برأسه ، وهرب منه إلى الفراش، فصحا من نومه ، مفضلا آلام الرأس على كوابيس المنام ..

العمق الدفين

هبّ المعلم يونس من قيلولته التي يرتاح فيها قليلا قبل أن يواصل عمله اليومي ملبيا إستغاثة جاره أبى الفوز ، وفي لحظات كان يدق باب بيته الخارجي ، حيث فتحت له الصبية صابرين الباب ، ثم أشارت إلى حيث أبوها يقف كمن لدغته أفعى ، لا يعرف ماذا يفعل ، فتوجه الرجل إلى حيث جاره وبادره بالسؤال :

ـ ماذا بك يا أبا الفوز ؟

لم يجبه الجار ، لكنه أشار إلى الحفرة ، التي كانت كأخدود سحيق شقّته عوامل الطبيعة القاسية ، بين سوافي الرمل ، تحت شجرة التين المنتصبة في باحة الدار منذ زمن طويل ، إمتد عبر شجرة العائلة ، حتى غدت التينة لأبي الفوز شجرة العائلة ذاتها ، التي توارثها عن أبيه ، عن جده ، إلى بداية الجذر السحيق من الأصل .

تطلع المعلم إلى الحفرة فبانت له التشققات والانهيارات والنتوءات على جوانبها ، وفي العمق بدت كتل الظلام مخيفة ومرعبة ، ردّته الذاكرة إلى اليوم الذي مد يديه فيه فتناول الجسد المتصلب الملفوف بالقماش الأبيض ، ثم طرحه على طولها قبل أن يهيلوا عليه التراب فتتوارى إلى الأبد ضحكاته الحانية ومخاوفه الرطبة كلما ألمّ به كدر أو سوء ، ثم دقق النظر في القاع ، فتراءت له أجزاء غير محددة الملامح ، تسوخ في الرمل الذي بدا كمستنقع من السبخ أو كدوامة في بحر من اللزوجة العكرة ، ما أن يستقر بجوفها جسم صلب حتى تبدأ بامتصاصه وشدّه إلى أسفل حتى يستقر في قاعها .

ـ ما هذا ؟

سأل يونس

ـ إنه الولد

أجاب الوالد وهو يفرك يديه ويحترق كالعاجز أمام الكارثة التي تقصف عمره ، ويبقى حتى اللحظة الأخيرة ينتظر رحمة الله ، وحين لا تأتي لا يقوى على فعل شيء إلا الصراخ والاستغاثة ، فكان أن فعل ، وكان أن لبّى نداء استغاثته جاره المعلم يونس .

إنبطح الفتى على حافة الحفرة ومدّ ذراعيه على إمتدادهما ولكن بالكاد لمست أصابعه أطراف الطفل ، حاول وحاول ، وحين لم يقو على سحبه ، طلب من جاره أن ينبطح وراءه وأن يمسك بكل قوته بقدميه حتى يستطيع أن يتدلى ، ففعل ، قبض المعلم على طرف الولد وشد ، فخرجت بيده ساق كانت كجذر حبة البطاطا المتصلبة ، وضعها جانبا وشد طرفا آخر ، فخرجت معه ساق أخرى ، وهكذا إلى أن احتضن بكلتا يديه حافتي الجسم الصغير وأخرجه من الحفرة ، ثم نهض ووضع الأطراف في مكانها . كان الجسم محمرا كدجاجة مشوية في فرن ، ويميل لونه إلى البني كلون الشوكولا ، وكان الجو حارا ، وتفتّت الأعضاء يؤدي إلى تعفنها ، لذا طلب المعلم من جاره أن يحضر غطاء لفّ به الطفل وأعطاه لأبيه ، ثم طلب منه أن يحضنه بشكل جيد ، حتى لا يصاب بالبرد . ثم أسرع كلاهما باتجاه المستشفى عسى أن يصلا في الوقت المناسب ، فيجمعا الأعضاء التي تفسخت بفعل الرطوبة والعفن وحرارة الباطن الملتهب .

صحا من غفوته فتوجه إلى الحمام ولطم وجهه بالماء البارد ، فشعر بالنشوة ثم فتح باب الثلاجة وشرب ماء باردا رطّب به حلقه الذي جف مع المنام .

تذكر جاره ابا الفوز وبناته الأربع ، ثم تذكر بطن زوجته المنتفخة ، فتمنى من أعماقه أن يحقق الله رغبة جاره فيرزقه الولد الذكر .

الـدمـيـة

إنه الليل يقترب وأكاد أن أرى خيوط الشمس تنسل من نسيج الكون خيطا خيطا ، وكل لحظة ، تمر تشتدُّ في الخارج حلكة الظلام ، فيطبق السكون على ما يحيط بي ، فتتحرك الكائنات بداخلي ، ضوء الشمعة التي إقتربت من نهايتها تنتهي أطرافه في جوف العتمة السحيق ، يلح عليَّ قضاءُ الحاجة ، أتهيّب ، لكن الخوف يمنعني ، أتشجع فأذهب إلى المرحاض ، فتمتد أذرع الليل من كل إتجاه كأذرعة الأخطبوط تود أن تطبق على خناقي ، يتملكني الرعب ، فأهرب عائدا وأندس في الفراش ، تتقطع أنفاسي ، بينما جبيني يتصبب عرقا .

قضاء الحاجة يضغط مثانتي ، والعرق يواصل سريانه من على جبيني ، أخرج رأسي من تحت الغطاء لألتقط كمية من الهواء ، فأراني غريقا يصارع تلاطم أمواج الموت ، أتذكر أنني لا أتقن السباحة ، فيملأني الرعب ، إنها اللحظات الأخيرة التي أتوقعها كل لحظة ، ولا من قشة تنقذني .

تبدأ جدران الغرفة بالإقتراب من بعضها ، فتنحصر المساحة الصغيرة التي هي لي من هذا العالم ، تقترب وتقترب ، حتى كادت أن تتلامس ، ربما هي الشهوة التي دفعتها للتوحد بعد طول إنتظارها ، لكنها تسحقني ! يتضاعف الرعب في داخلي ، ما عدت أحتمل ، لحظة واحدة وكنت أقفز من فراشي ، وأصير خارج البيت .

أجساد الناس تتزاحم من حولي ولا أرى سوى الوجوه ، وجوه عديدة إختفت ملامحها تكشر لي فتنفرج عن أنياب حادة ، أتحسس لحمي ، فأحثّ الخطى هربا منها ، أحرص أن أسير ملاصقا للجدران ، أتلفت ورائي ، أمامي ، شمالي ، أهرب من تلك السيارة اللعينة التي أتوقعها كل لحظة تهرس عظامي ، يحييني أحدهم ، أتطلع إليه ، أرفع يدي وأواصل السير .

أدخل في حارة مظلمة ، فأرى عيونه الكثيرة تبرق لي من كل الزوايا وأكاد أن أرى لسانه يشمت بي ، أركض لكنه يلاحقني ، يعاود العرق تصببه من على جبيني . أصل إلى الجسر ، أنظر تحتي فأرى المياه الراكدة والسبخ في أحشائها ، يبدأ الجسر يطقطق تحت قدمي ، فيملأني الرعب من جديد ، أنني لا أتقن السباحة فماذا لو إنهار الجسر الآن ؟ أركض وأركض لأهرب من عيونه التي كانت تحملق بي من بين المياه الراكدة .

أجدني على باب حانة ، فأندفع بكل قواي ، أدلق كؤوس العرق في جوفي الملتهب . شيئا فشيئا يتوزع الخدر في أعضائي ، ولأنني كنت جائعا ، فإنني ما ألبث أن أغفو ، بعد أن ينتصف الليل يلقي بي صاحب الحانة خارجا ، فألملم أعضائي إلى غرفتي كفأر وجد نفسه فجأة في ساحة مليئة بالقطط ، أنسل إلى الداخل كلص ، أسير على رؤوس أصابع قدمي ، أندس فيما تركت لي كتلة الشحم من مساحة بالفراش ، أتمدد على جنبي وأتأملها ..

إنها امرأة من ذهب ، تجيئني في الليل وتسبح في أعماق قلبي ، ثم تطوف برأسي فتحيلني حلما ، يلملم النجوم ثم يصنع منها عقدا أطوق به جيدها ، فتكافئني بقبلة ، أنتشي وأصير طيفا يجوب الدنيا التي صارت سهولا من الثلج لا يسكنها سوى الفراش الملون وأنا .. تتململ في نومها ، أفتح عيني ، ما أشهى النساء ، ليس كل النساء ، بلى كل النساء إلا واحدة . أتذكر تعليقا كتب تحت لوحة جميلة :

المرأة أشهى من في الوجود شريطة أن لا تكون زوجتك .

يعلو في رأسي الصراخ ، صراخ .. صراخ ، إنه صراخها الذي جاء بالمخاض ، بعد أيام من طول الإنتظار ، أخيرا .. ينتابني شعور غريب ، إنه مزيج من القلق والرهبة والفرح ، قليل من الفرح ، أتساءل : هل سأتمكن منه ؟

وأطفيء عينيه المتلصصتين بي دائما واللتين تلاحقاني منذ وعيت الدنيا ؟

أخيرا .. جاءت الطفلة إلى الدنيا ، قطعة صغيرة من اللحم ، من لحمي ودمي ، عينان صغيرتان تتطلعان في الأفق . من يومها لم يغمض لي جفن ، إنها كل عالمي أراقبها طوال الليل والنهار ، ها هي تكبر ولكن ببطء شديد ، أداعبها حين تصحو ، أتوحد معها ، إنها تتحرك ، ها هي تمد يدها لي ، تعانقني ، أضمها إلى صدري ، أقبلها ، أكاد أطبق عليها جوانحي ، أتلمس شعرها ، فأشعر أنني قد إمتلكت الدنيا ، أنها تخطو فيصير للأرض مكان مقدس عندي ، أشمها فتملأني الطمأنينة ، أتلمسها فينتشر الحنان في كل خلايا جسدي ، يا للروعة هكذا سيتضاعف عمري وسأعيش مرتين ، سأمتد عبر الزمن بخط أكيد لن ينتهي ..

يرقص ما بداخلي ، أتحرر من جاذبية الأرض ، وأحلق كطائر جميل في السماء ، أتوحد بالغيوم ، وأخالني قطرة ماء تنزل مع خيط المطر لتعانق نبتة ورد ، أذوب في أريجها فأنتشي برائحة العطر ، تهتز أوصالي ، فأرقص إلى أن يلقي بي التعب ، فأضحك وأضحك إلى أن أبكي من الضحك .

ما كانت الدنيا على رحابتها تتسع لي ، فقد تمددت خلاياي واسترخت حتى شملت الكون بأسره ، تمددت بقربها ، ضممتها كالعادة وغفوت مرتاح البال .

لحظات قليلة تلك التي غفوت فيها ، وحين صحوت ، حملتها ، لكنها كانت هامدة لا تتحرك ، وضعت يدي على المفتاح وأدرته ، لكنها بقيت على حالها ، فقد فرغت الشحنة من البطارية !

وحدة

ما إن عدت إلى البيت مهدودا من التعب ، حتى استلقيت على السرير ، ثم غفوت ساعة أو ساعتين وكنت أصحو ببطء ، ثم وجدتني أنهض فأصنع فنجان قهوة أرتشفته مع لفافة تبغ دون أن أشعر بمتعة تذكر ، شعرت بالملل فقررت أن أزور أحدهم ، وقفت لأغير ثيابي فأثار إنتباهي شعاع من ضوء يتسرب عبر باب الحجرة الأخرى ، خطوت عدة خطوات ودخلتها ثم تأملتها ، كان سريرها مرتبا وكانت خالية ، رغبت بشيء من الطعام فنهضت توا إلى المطبخ ووضعت إبريق الشاي على فتحة الغاز وعلى الأخرى وضعت المقلى وكسرت بيضتين ثم جلست إلى المائدة ، لقمة .. اثنتان وما عدت أرغب بعدها بتناول لقمة أخرى .

جلست على الأريكة أمام التلفاز ، صور متحركة وبرامج أطفال ،

إنتظرت قليلا عسى أن يحضر عندي أحدهم ، لكن عبثا ، لحظات وكنت خارجا في الشارع ، تمشيت قليلا وأنا أراقب الناس يروحون ويجيئون برتابة معهودة لدي ، وقد بدأت إضاءات المحال الملونة تضيء وتنطفئ في محاولة لتبديد حلكة الظلام الذي بدأ يرتخي بأطرافه على المدينة التي تغص في جوفها بكل أنواع الناس . وجدتني قريبا من بيت مجموعة من الأصدقاء ، فقرعت الباب .

ألقيت التحية على الحاضرين ، ثم أخذت مكانا لي ، كانوا يلعبون الورق بانسجام ، راقبت حماسهم وانتظرت ، وقد خطر ببالي بأن زميلي قد يكون عندهم ، لكنني لم أسألهم عنه .

بعد فترة استأذنت وتوجهت إلى بيت آخر ومجموعة أخرى من الزملاء وتكرر المشهد ولم أجده عندهم أيضا .

عدت إلى نفس الشارع وسرت متراخي الأعضاء ، أراقب حركة الناس ، ولا يعلق شيء منها بالذاكرة ، حتى وصلت البيت وألقيت بجسدي على ذات الأريكة ، أراقب التلفاز الذي لم يشدني كثيرا ، حاولت أن أقرأ شيئا ، حاولت أن أنام ، وكان الوقت مبكرا ، ذهبت للغرفة الثانية وكان السرير ما زال مرتبا على حاله ، خاليا من ساكنه ، شعرت بالوحشة وبدأت أتساءل عن سر تأخره ، ربما يكون قد وجد صحبة مسلية ، فضلها على قضاء الوقت معي بالحديث الفارغ . ذهبت إلى الشرفة ، كانت البيوت المجاورة تسهر أمام شاشات التلفاز ، وصوت هنا وضحكات هناك ، وحوارات متناثرة لا تلتقط الأذن شيئا مفهوما منها ، بقيت بعض الوقت إلى أن بدأ بعضها يطفيء أنواره وينام .

في اليوم التالي ذهبت إلى الجامعة ، بحثت في الكافتيريا دون أن أسأل أحدا ، ثم بين الحاضرين في المحاضرة الأولى فالثانية ، ثم عدت للبيت ، جلست إلى المائدة أتناول طعام الغداء، وحدي ، أدرت جهاز التسجيل ، ثم ألقيت بجسدي على الفراش ، ثم نهضت ، وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة ، ماذا أفعل بالوقت ؟ نزلت إلى الشارع أتنقل من واجهة إلى أخرى ، ثم من بيت لمجموعة من الزملاء إلى آخر ، وكنت أتلصص بنظراتي بحثا عنه دون جدوى .

عدت إلى البيت وكان الليل قد إقترب ولم يزرني أحد ، رفعت سماعة الهاتف إتصلت بهم واحدا تلو الآخر ، هل رأيتم عصاما ؟ ولم أعثر له على أثر .

قضيت ليلتي وقد أخذ القلق يجتاحني بقوة حتى أنني فكرت في إبلاغ قسم الشرطة عن غيابه لكنني إنتظرت حتى الصباح ، فنهضت باكرا وذهبت إلى الجامعة وبدأت بالسؤال عنه كل صديق ، رأيت سلوى في الكافتيريا فتوجهت إليها ، ألقيت التحية وجلست إلى طاولتها هل رأيت عصاما ؟ لا منذ يومين لم أره ، أجابت ، لعله مريض ؟ قلت ، إذا علينا أن نسأل عنه ! قالت ، وهكذا إتفقنا كلانا أن نذهب للسؤال عنه بعد أن ننهي محاضراتنا .

عند العصر كنت أرافقها ، حتى صعدنا الدرج، دققت الباب ، إستقبلنا بوجه بشوش وكانت لديه مجموعة من الأصدقاء والزملاء ، قاموا بضيافتنا وقضينا ساعات لديهم دون أن نشعر بالملل ، وحين غادرنا شعرت براحة لم تدم طويلا ، لأنني اكتشفت أنني أسكن وحدي .

القلق الحار

حين خرج من البيت ، لفحت وجهه موجة هواء حارة ، تسربت إلى داخله بشيء من الضيق لكنه تحامل على نفسه وتابع سيره حتى صار يجد صعوبة في التقدم بين الأجساد الذاهبة والآيبة على رصيف الشارع التجاري ، الأمر الذي أخذ يلقي في نفسه ضيقا وراء ضيق ، لكنه كان يقنع نفسه بأنه ليس على عجلة من أمره ، فما خرج سوى ليتجول وليبعد السأم عن روحه .

كان كلما تقدم في سيره ، توزعت نظراته يمينا وشمالا ، لإلتقاط المتعة المجانية الموزعة على المكان الذي ترطّبت أجواؤه رغم كل شيء بفعل الأجساد الطازجة ، التي نزعت عنها صاحباتها الأردية الثقيلة في محاولة للتخلص من حرارة الطقس ، التي تبث في النفوس الملل والقرف ، فكان الأمر لا يخلو من رؤية سيقان تفسرت إستداراتها تحت السراويل الضيقة أو جزء من أفخاذ لامعة تحت تنورات قصيرة ، أو حتى أثداء تكورت ولاحت ظلال حلماتها تحت القمصان الشفافة .

كان معظم الناس يسيرون مجموعات تأنس بالصحبة ، إلا هو ، فشعر برغبة في أن يصادف أحد أصحابه ليتمشى وإياه ، عسى أن يتمتعا معا برؤية الناس عند ساعات الليل الأولى في مثل هذا اليوم ، الذي يبدأون فيه خروجهم من بياتهم الشتوي الذي إمتد طوال فصل المطر .

ما كان ينوي شراء شيء ما ولكنه ككل الآخرين كان يتوقف قليلا أمام المحلات التجارية ، يتأمل الأحذية والملابس الجديدة ، فيرى أشياء كثيرة تعجبه ، لكنه لا يلبث أن يتذكر النقود التي لديه ، ثم يحسب ما تبقى من أيام في الشهر ، فيكتم رغبته ويواصل نقل قدميه مع إتجاه الشارع .

على الرصيف المقابل ومن بين الأجساد المتزاحمة التي تفصله عنه ، رأى صديقه مؤنس ، فأشار له بيده ، لكنه فوجيء به يواصل سيره ولا يهتم به، وقف مكانه وواصل التلويح بيده ، حتى إنتبه له بعض الناس القريبين منه ، إحتار بأمر صديقه ، وبقي لحظات واقفا في مكانه يفكر في السبب الذي دعا صديقه إلى أن يتجاهله ، وتساءل عما فعل له ، ليشيح عنه بوجهه ، وبقي هكذا إلى أن غاب عنه طيف صاحبه .

واصل سيره وحاول أن ينسى الأمر ، وأخذ يتوقف دونما هدف أمام المحلات والدكاكين ويقوم بتوزيع نظراته على العابرين من حوله ، لكنه بين لحظة وأخرى كان أمر مؤنس يعود إلى ذهنه فيشغله ، ويستعرض في ذاكرته آخر لقاء بينهما .

لقد شربا القهوة معا تلك الليلة ودخنا السجائر وكانت ملاحظاته على النص الشعري لصديقه إيجابية ، وبقيا يتحدثان بود إلى أن إنصرف ، ولم يبد عليه حينها أي إنزعاج تجاهه أبدا ، فماذا حدث ؟

ما إن صار في نهاية الشارع حتى عاد أدراجه ، وفكر في أن يحث الخطى عسى أن يلحق صديقه فيستطلعه الأمر ، ولكن ماذا سأقول له ، إن كان قد قرر أن يقطع علاقته بي ؟

تذكر لقاءه عصر هذا اليوم مع أصدقائه وما دار خلاله من حديث، واستعرضه كلمة .. كلمة لربما كان قد تفوه بكلمة بحق مؤنس ، وتذكر أنه لم يقل بحقه ما يسيء فهو كان للحظة أعز صديق لديه .

ما أن وصل البيت حتى توجه من فوره إلى الثلاجة وصب لنفسه كأسا من العرق واستمر في تقليب الأمر . فإنتبه إلى أنه قد مرت ثلاثة أيام لم يزره فيها مؤنس على غير عادته حتى أنه لم يسهر عنده كعادتهما هذه الليلة ، وكانت ليلة الخميس ، إذا لا بد أن يكون في الأمر شيء ما ، لكن ماذا عساه أن يكون هذا الشيء؟

دخن بشراهة وقضى أكثر من ساعتين يفكر في الأمر ، ولم يصل إلى السبب الحقيقي وراء تجاهل مؤنس له ، حتى انتابه قلق عميق ، حاول أن ينسى الأمر فذهب إلى مكتبه وحاول أن يقرأ شيئا ما ، لكنه لم يستطع أن يركز. طوى الكتاب وحاول أن ينام ، لكن عبثا .

بعد أن إنتصف الليل ، قفز من فراشه وغير ثيابه على عجل ، واتجه إلى بيت صديقه ، دق الباب بقلق ، حتى إذا فتح له ، بادره بالسؤال .

ـ لماذا تجاهلتني هذا المساء ؟

ـ أنا ؟

ـ نعم أنت

أكد له مؤنس أنه مر هذا المساء بذلك الشارع المؤدي إلى بيته ، لأنه كان في طريقه إليه ، ليسهر عنده كعادته ، ولكنه لم يجده ، ولو كان لمحه في الشارع ، لوفر عليه عناء البحث عنه.

إعلان تـعـارف

دون أن ينظر إلى جهة اليمين ، لملم الفتى أطرافه وجلس إلى حافة المقعد الخشبي زامّا عينيه إلى الأسفل ومغمغما بكلمات كانت ترتد إلى داخله دون أن ينفتح عنها فمه الذي بدا كسجن يحبس الرغبة ، فيقتلها قبل أن تنطلق كعصافير ترف بأجنحتها ، فتوزع الفرح ، ليس له فقط ، بل وربما إلى تلك الجالسة على الحافة الأخرى للمقعد ، والتي كانت بدورها تبدو كتمثال من الشمع ، ألقته يد مبدعة في ذلك الركن النائي بعيدا عن الصخب .

بعد لحظة همّ الفتى بفتح فمه ، فتطلع إلى الأفق ، حيث ظهرت له زرقة السماء بصفائها الآسر ، صفحة متسعة لإطلاق أحلامه كحزم من النور الملون ، خفض عينيه بعد ذلك، فتراءت له شجيرات خضراء مزينة بعناقيد الفل التي لفحت منخريه برائحة منعشة , ثم تأمل مطولا جهة اليسار ، حيث رأى على البعد مجموعة من الصبية يتراكضون وراء كرة بدت له بانتفاخها ، مملوءة بهواء مضغوط كالذي في صدره . بعد ذلك تشجع الفتى وألقى نظرة خاطفة سريعة ، طارت فيها خيالاته مع خصلات الشعر الكستنائي ، التي تموجت بدلع أنثوي مع نسائم الربيع ، لكنه سرعان ما شعر بشيء من الخجل مع ارتفاع حرارة الدم في عروقه ، وسهم برهة . ثم نظر إلى ساعته .. إنها الرابعة إلا ثلثا ، فقد تكون ساعتي غير مضبوطة ، إذا أسألها : كم الساعة لأتأكد من ساعتي ولأفتح معها الحديث ، فكرة جيدة ، لكنها سرعان ما تكتشف أنني أتمحك بها ، ثم لا بد وان تجيب باقتضاب فبماذا أواصل الحديث بعد ذلك ؟ وربما أحرجتني أكثر من ذلك ، فنظرت إلي باشمئزاز ولم تجب ، حينها ماذا سيكون موقفي ، إذا لماذا لا أسألها عن إسم الحديقة وأدّعي أنني غريب عن هذه المدينة ؟.. لا .. لا، أن هيئتي لا تدل على ذلك ، فستكتشف أنني عابث كاذب ، فتشيح عني وجهها ، وربما أيضا تكون قد رأتني قبل ذلك ، فيتأكد لديها الأمر بأنني رجل مراوغ يعابث الفتيات ، لماذا إذن لا أسألها أن تعيرني تلك المجلة التي تقرأ فيها ، فتعرف أنني أهتم مثلها بأخبار الفن ، فترتاح لي وتكون مناسبة للحديث عن النجوم ، ولكنني لا أعرف شيئا عنهم ، فماذا لو سألتني سؤالا فنيا فأحرجتني واكتشفت جهالتي ، فصغرت في نظرها وبتّ غير مؤهل لمصادقتها .. عطست فجأة، فانتبه إليها ، داهمته عينان سوداوان برموش طويلة معقوفة ، وخال على الوجنة اليمنى ، تمنى حينها لو كان شاعرا ، فصب الغزل العذب لهما ، هزّه الإعجاب بجمالها ، فنكس ناظريه وعاد يفكر في الطريقة الأمثل للتعرف إليها .

أما هي فكانت تضع على ركبتيها مجلة فنية تقرأ ما فيها من أخبار النجوم ، إلى أن جاء هذا الفتى وجلس إلى جوارها ، فأثار إنتباهها منذ اللحظة الأولى لمجيئه ، إستمرت في تقليب صفحات المجلة ، وبين الفينة والأخرى ترفع عن وجهها خصلة إرتخت أمام عينيها فتبعدها إلى مكانها ، وكلها إنتباه وإنتظار لأية حركة أو كلمة قد يبادرها بها هذا الشاب المهذب الذي جلس إلى جوارها ، وبدا كأنه جاء لينتشلها من وحدتها ، تركّز تفكيرها .. وتنتظر .. لابد انه يهيىء نفسه الآن للمبادرة ، لاشك أنه بعد قليل سيقترب مني ، فيصير بجواري تماما ، ثم يبادرني بالتحية : مساء الخير .

سأرد عليه بما يشبه الهمس : مساء النور ، ثم قد يتابع بأنه قد رآني قبل الآن ، وأن وجهي ليس غريبا عنه ، لن أقهقه على تصنعه البراءة ، بل سأشجعه قائلة : وأنت ليس وجهك بغريب عني ، ثم بعد ذلك مؤكد أن يسألني عن إسمي وعملي ، فأجيبه ، ثم أسأله بدوري وهكذا يتم التعارف بيننا ، بعد ذلك أنظر إلى ساعتي .. ياه لقد تأخرت ، لابد أن يكونوا في البيت الآن قد قلقوا علي ! ثم أنهض مستأذنة منه ، وبدون شك لا بد أن يسألني موعدا ، أثقل عليه قليلا ، ثم نتفق على موعد ، وقد أعطيه رقم الهاتف .

تنحنح ، فظننت أنه قد همّ بالكلام ، تطلعت إليه . أثارت إنتباهها مجموعة الكتب التي بين يديه ، لكنه ما إن التقت نظراتهما، حتى خفض عينيه وانكمش على ذاته خجلا كما كان منذ لحظة جاء ، هل أبادره بالسؤال أن يعيرني هذه الكتب ، وأسأله من أين اشتراها متصنعة الإهتمام بعناوينها ؟ ولكن ماذا

سيقول عني ، لابد أن يظن بأنني فتاة رخيصة .. لكن ما باله صامت هكذا وكأن شيئا قد ربط لسانه ، ألم يتابعني منذ نزلت من الحافلة ، وسار على بعد خطوات مني ، وكنت أنتبه إليه ، فلا أحرجه وأشعره بأنني غير منتبهة إليه ، كلما دخلت إلى محل تجاري وقف بالجوار يتأمل الواجهة ، حتى إذا ما خرجت تابعني محافظا على المسافة إياها بيني وبينه فسار ورائي كل ذلك الوقت ، ثم جاء إلى هنا وجلس بجواري .. فلماذا فعل كل ذلك إذا ؟ أليتأمل السماء بقربي أم ليشم رائحة عطري أم .. ؟ !

لعله يخشى أن يرانا أحد ، وربما يكون معروفا في هذه المنطقة ، فيتجنب أن يحرجه أحد الأصدقاء لو رآنا نتجاذب أطراف الحديث ؟

ربما .. ؟

بعد أن طال الوقت بهما على هذه الحال وبعد أن وصلت إلى هذا الإستنتاج ، نظرت في ساعتها كانت تقترب ببطء من السادسة مساء ، نهضت، ولملمت خصلات شعرها المتناثرة على زوايا وجهها ، وحملت حقيبة يدها بعد أن وضعتها على كتفها ، ثم لفّت مجلتها ، وسارت ببطء من أمامه ، ثم نظرت إليه نظرة عميقة ، فارتبك .. ثم قام بدوره فلملم ما تناثر من أجزائه في أرجاء المكان ، وسار بصمت وراءها ..

بعد أيام ، خرج مبكرا وتناول على عجل الصحيفة اليومية من البائع، وفتح صفحة الإعلانات ، حيث قرأ بارتياح : شاب في الخامسة والعشرين، جامعي ، يهوى المطالعة والمراسلات ، خصوصا مع الجنس الآخر ، يرغب بالتعارف إلى فتاة جامعية أو موظفة ، ذات شعر كستنائي وعينين سوداوين وقوام رشيق !!

حلم مراهق

كان قد اعتاد رؤيتها ، شأنها شأن سكان الحي الآخرين ، كلما سار في طريقه إلى المدرسة ، أو عاد إلى البيت منها . يراها أغلب الأيام ، أو كلما أرسله أحد أفراد أسرته لقضاء حاجة من دكان البقالة ، التي تجلس فيها بعد إنتهاء دوامها المدرسي ، منذ أن مات أبوها .

ولم يكن الولد الحالم يعلم قبل أن تدهمه حالة المراهقة ، على حين غرّة ، سر تعلقه بها ، سوى أنها جارة مهذبة ومكافحة، تبيعه ما يطلب من احتياجات البيت التي تتوفر لديها ، بدقة وتهذيب ، وفوقهما ابتسامة بريئة ، وما إن تنتهي ، حتى تجلس على الكرسي البائس ، وتفتح كتابها المدرسي ، تراجع دروسها .

تعود رؤيتها ، كما تعود رتابة أيامه ، وكان يراها في أحلامه الطفوليـــة شيئا خاصا ، حتى إذا ما بدأ يدرك معنى الرجولة والأنوثة ، صار ينتبه إلى رغبته في أن يجالسها ويحادثها ، وينتبه إلى إحتدام فورة دمائه ، إذا ما جاءها للشراء .

ثم صار للأمر معنى آخر ، منذ أن إشترى يوما حاجياته المعتادة ، ونقدها الثمن فلمست أطراف أصابعه يدها الدقيقة ، فشعر بكهرباء تلسعه في أعصابه ، في اللحظة التي احمرت فيها وجنتاها . ومن يومها بدأ يدرك أنه ما عاد ولدا ، وما عادت روعة بنتا بريئة .

ورغم تأجج رغبته في رؤيتها ، صار يرفض من يومها ، وقد صار شابا أن يذهب مراسلاً للأسرة في شراء احتياجاتها من بقالة "أم مريم" القابعة في منحنى الحارة التي تبدأ بالمدينة الرياضية ، وتنتهي بمقبرة الشهداء في طرف المخيم . لكنه ظل يحرص على السير في طريقه إياها الموصلة إلى المدرسة الثانوية ، يسير ببطء ويتطلع بعينيه مراقبا الأجساد الغضة ، التي بدأت تفور منها الصدور ، وتهتز منها الأرداف ، مثيرة مراهقة الفتية . يلمحها من بعيد ، فلا يقترب منها ، بل يراقبها عن بعد ، ويحلم بخصلات شعرها الكستنائية ، ولا يسمح لعينيه أبدا أن تتفرسا في صدرها أو في أردافها ، كما أنه لا يذكر أبدا أنه قد رآها في أحلام يقظته أو نومه ، عارية أو مضطجعة أو معانقة .

كل ما كان يخطر بباله أن تهّف على وجهه بخصلة شعرها الناعمة ، فيغفو ، ثم حين يفتح عينيه ، يهتز كيانه لللحظ الجارح وللفم الذي يفتّر عن ابتسامة ساحرة ، كانت كافية لديه لأن يجمع يوما كل شجاعته ويتقدم منها بلطف . بعد أن خلا الشارع إلا منهما ثم يهمس برقة وعذوبة خاصة ، وكأنما يكلم نفسه : أحبك .

لم تكن الكلمة توترا لحظيا أحدثته شفتاه في الهواء ، بل كانت فاتحة اللقاءات والمشاريع الخاصة ، التي بدأت بالخطبة والزواج وإنجاب الأولاد ، ثم تعليمهم وتزويجهم وانفتاح الحياة على امتداد اتساعها الممكن ، حتى أقفلت دورتها ، بعد أن أعطته كل ما اشتهاه .

في ذلك الصباح تراءت له كالإلهة ، حين إنفرجت شفتاها عن ابتسامة خضراء ، ثم سارت ضاجّة بالمرح والحياة ، فسار بقربها ، يود لو يصرح لها بكل ما يعتريه من مشاعر ، وما يؤرق لياليه ، ويقض مضاجعه .. لكنه لو يفهم حقيقة شعورها نحوه ؟

أيطلب موعدا في مكان هادئ ؟ أم يكتب لها ؟ أم يلقي برأسه كمجنون على الأفق الذي يلامس وجنتيها ؟

إنسلت من دائرة الهواء الرطب الذي يحيط بمخيلته ، وغابت بين البنات داخل المدرسة ، قبل أن يتفوه بأمر تردد في تحديد ماهيته .

في مساء ذاك اليوم الربيعي ، إكتظت الشوارع بالمارة ، لكن حدسه الداخلي دفعه للبحث عنها ، وبعد برهة ، لمحها من بعيد برفقة صديقة لها ، تضج شبابا وحيوية ، وترتدي تنورة توحي بمفاتن عذراء ، مثيرة ، وقميصا اشرأبت النهود من تحته ، فائرة ومتحفزة للإنطلاق ، كاد أن يحسد ذاته على نصيبه

من الدنيا ، فهذه الحسناء ستغدو زوجته ، حين أبطأت المركبة الفاخرة، وسارت بهدوء شديد بمحاذاتها حين همس رفيق السائق لهما كلاما لم يسمعه بالطبع ، لكنه خمّن كنهه ، ثم توقفت السيارة ، وركبت الفتاتان بهدوء.

وفي لحظة كانت تنطلق المركبة مع آهة حرّى ، حرقت كل ما في صدره من مشاعر الطفولة البريئة .

قـراءة لـيـلـيـة

أغادر البيت في الصباح ، سائرا على قدمي بين الأزقة ، متوجها إلى عملي ، حيث أبقى حتى الثانية بعد الظهر ، ثم أعود إلى بيتي ، أتناول طعام الغداء وأنام وقت القيلولة ثم أعود للعمل إلى أن تغيب الشمس وتبدأ السهرة .

هكذا تمر الأيام برتابة مقيتة ، وتموت معها الساعات الفارغة ، إلى أن ينام الناس ، ويمتد السكون في أرجاء المحيط ، فأتناول كتابا أو رواية ، أقرأ، فتسكن الطمأنينة روحي ، ولا تضيع الساعات سدى .

كالعادة أسير في الشارع ، تدهشني رائحة الهدوء وتفاجئني عجلة السائرين على قلتهم ومن زقاق لآخر يتكرر مشهد الرجلين الواقفين دونما مبرر واضح ، إلا انهما يقفان في المكان الذي يسمح لهما برؤية كل من يسير في الزقاق، لا أهتم كثيرا بالأمر ، أسارع الخطو حتى أصل إلى البيت ، أتناول العشاء ، أسمع الأخبار ، أشاهد المسلسل ، ثم أبدأ سهرتي مع "زوربا".

تشدني الرواية ولكنني بعد حين أشعر بالتعب أو بالنعاس ، أنهض فأصنع فنجان قهوة، يهزني السكون، أتطلع من النافذة ، أرى ضوء الجيران مشتعلا، أشعر بالرفقة فتأنس نفسي وأستمر بالقراءة ، وبين حين وآخر ، أتطلع فأرى أنها مازالت ساهرة تراجع كتبها، أتمنى لها النجاح وأرغب للحظة أن تستمر إلى الأبد في حالة إمتحان، لتؤنس سهرتي مع القراءة ، أسخر من أنانيتي، وحين يقترب الفجر من المجيء ، أندس في الفراش وآخذ قسطا من النوم.

هكذا إعتدت أن أقضي أيامي في الفترة الأخيرة ، لكنني الليلة ما إن بدأت سهرتي حتى وجدت نفسي مقتنعا بضرورة عدم التوغل في السهر ، فوضعت ساعتي أمامي على المكتب وأخذت أراقب عقاربها ، إنها الواحدة ، أما زال التلفاز يبث برامجه ؟

أعتقد ذلك ، إذا لا بأس أن استمر . الواحدة والنصف ، أتردد قليلا .. حتى انتهي من قراءة هذا الفصل ، وبعد ذلك أهرب مع آخر كلمة إلى الفراش ، ولكن الرواية تشدني وماذا لو علا الطرقُ على الباب الخارجي ؟ أو حتى على "الشبّاك" ؟

آه لو كان يمكنني أن أقرأ "على العتمة" ! أطل من النافذة ، إنها لم تنم بعد فأستمر أنا بالقراءة . إنها الثانية بعد منتصف الليل ، أشعر بالخوف ، صوت ما بعيد ، لكنه صوت ، كأنه طرق خفيف على باب ما ،ربما كان على باب الجيران أول الحارة ، لكنه صوت ، أقفز من على الكرسي ، أطفيء النور، لم يحن موعد نومي ، ومازال الفصل لم ينته بعد ، والرواية حارة بين يدي مازالت!

خمس دقائق كاملة قضيتها وأنا أترقب شيئا ما، أتشجع بعدها وأشعل النور ، ثم أعود لقراءة الرواية ، تسحرني أحداثها، إنها الثانية والنصف. أنظر إلى الساعة فأقفز إلى النور، أضع يدي على المفتاح ، أتردد.. أنصت السمع ، لا أسمع شيئا ، فأعود لأكمل الفصل الروائي . في الساعة الثالثة أنتهي منه ، ثم أنظر من النافذة ، أراها تنهض في اللحظة ذاتها وقد أغلقت كتابها وأطفأت النور ، فأفعل مثلها وأندس في الفراش .

في اليوم التالي ، أبدأ من حيث انتهيت بالأمس وقد قررت أن أنهي الرواية هذه الليلة ، لكنني لا أتذكر تماما ما قرأت ، أتغاضى عن هذا الإكتشاف المحبط وأواصل القراءة . الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، لا أحفل بالأمر ، فالوقت مازال باكرا كما أن ضوءها مازال مشتعلا ، في الواحدة والنصف لا أهتم للأمر أيضا ، ولكن هل أنهى التلفاز برامجه ؟ أتساءل ، ربما؟ أجيب .

أصنع فنجان قهوة ، ثم أشربه مع سيجارة وأواصل القراءة ، أفتح النافذة لأتنشق شيئا من الهواء ، فأفاجأ بأن نورها قد انطفأ ، أحاول أن أنسى الأمر ، أعود للقراءة ، يشرد ذهني قليلا ، أتساءل لماذا نامت مبكرا ؟ ؟ لا بد أن الطرق قد اقترب من بابهم : لكنهم جيراننا تماما ! هذا يعني ؟ ..

معقول؟ أقفز وأطفيء النور ، لكن الوقت مازال مبكرا على موعد نومي ولكن ماذا لو .. يتملكني الخوف ، فأذهب منكسر الخاطر إلى الفراش وأنام .

أصحو مبكرا ، لا أراها على موقف الباص ذاهبة كعادتها إلى الجامعة ، ربما كانت مريضة ؟ وربما كانت .. ؟ لابد أن أعرف حقيقة الأمر، أعود أدراجي ، أظن أنني سأراقب بيتهم ، وسأنصت طوال اليوم إلى حديث الجارات ، وقد أعلم شيئا من أمي عن حقيقة ما حدث .

ألتقي صديقي حازم في الطريق ، وجدتها ! من هي ؟ يسألني ، أنت طالب بالجامعة ، ما هو امتحانكم هذا اليوم ؟ يضحك ويسألني : لماذا ؟

ـ أخبرني أولا .

ـ ولكن امتحاناتنا انتهت منذ يوم أمس ، لماذا تسأل ؟

ـ لا شيء .. لا شيء

أجبته ، وواصلت طريقي إلى العمل .

أحلام !!

في الشرفة الرحبة ، تلقي الألوان ظلالها وتمتد لتتكسر في الظلام المحيط ، والأفق يعلو ليرفع سقف السماء ، ويفتح عمق المدى للذاكرة ، تشفّ الرؤى وتنحسر الغلالة وينكفء الوجه الدفين ، حين يهفّ النسيم برائحة الياسمين ، ولا تسمع الأذن سوى هسيس العذارى وبوح العنادل والحساسين الطليقة تجوب المدى .

ارتخي فلا من عذاب ولا من لوعة ولا من ألم ، يحوم الفراش ، يحط أمامي ، يحدثني عن فرحته العارمة ، أبوح له برغبة دافئة ، يفرد جناحا أمتطيه إلى حيث تجمّع حشد الورود في باحتنا الواسعة ، أراقب حفل التلاقح بين الندى والعطر ، تدب الحياة في خلاياي ، أودعهم وأرغب في احتضان المدينة.

أجول كطائر العندليب ، أدندن شدو البلابل ، أهفو كطائر تحمله أمواج النسيم العليل ، فراش كل ما حولي ، أناس ودعوا الطين ، وصاروا خلائق من ضوء تعددت ألوانه الزاهية، أحيي ، أقبل ، أسلم ، لا من حبيب فقيد .

صدفة ¸ أمرّ أمام مبنى ، أضطرب ، أحاول أن أتذكر السر ، لكنني لا أستطيع ، زخارفه تناثرت بإبداع واضح ، واحتضنت حجراته كل أنواع الورود ، وكل أنواع التحف ، وأقسامه احتضنت كل أنواع الفنون ، يغص بالناس، فهذا يشاهد عرضا وذاك يسمع شعرا ، وآخر يشم وردا ، ورابع يغني ما يشاء !

شيء أكثر من المتعة وأعمق من الغبطة ما ينتابني ، أجوب الشوارع فلا أرى سوى ثنائيات متحابة تتأبط أذرعة بعضها بعضا ، ولا أسمع سوى الأنغام ولا أرى إلا ألوانا ، وكأن الناس جميعا ليسوا سوى جمع من الفنانين والمبدعين ، هذا ينشد الشعر ، وذاك يغني ، وآخر يرسم ، هذه ترقص وتلك تشدو .. أواصل سيري لا أشعر بالوحدة أبدا فكأنني جميع الناس أو كأن الجميع هم أنا ، لا غربة ولا قلق ، ولا خوف ، لا ألم . أمد يدي .. هنا كمثرى، هناك موز ، فراولة .. الورود بكل أنواعها ، النفس شبعى والقلب مفعم بالارتواء .

أسير وأسير ولا أشعر بالتعب ومجرد أن تخطر ببالي الرغبة في الفتاة التي طالما تمنيتها ، أراها بجواري تقول :

شبيك .. لبيك

لا أرغب سوى بقبلة ، فتنطبق الشفاه .

يلفت انتباهي حشد من الناس يشاهدون متحفا ، يشيرون بأيديهم إلى مخلفات العهود البائدة ويضحكون ، هذه هراوة ، هذا سوط ، تلك فلقة ، ذاك دولار ، هذه سكين ، هذه بندقية ، تلك قنبلة .. هذا صبي محنط مات من الجوع ، وتلك فتاة صرعتها رصاصة ، هذا خازوق ...

وكان الدليل يفتح كتاب التاريخ ويشرح الاستعمالات المنقرضة للأدوات ، فتبدو الدهشة على الوجوه البيضاء الناعمة .

أدخل ورفيقتي إلى الحديقة ، أقطف لها وردة ، فتهديني ابتسامة ، أحدثها عن كل ما يجول بخاطري دون تحفظ ، نشرب عصيرا مسكرا ، ثم نرقص مع الجموع ، على أنغام موسيقى صدحت في كل أرجاء المدينة .

بعد أن ينتصف الليل نعود معا ، أتعودين معي إلى بيتي ؟ أسألها ، لا فرق، بيتك أو بيتنا، تجيب ، نكتشف أننا نسكن جوار بعضنا ، نلج مدخل العمارة ، نصعد الدرجات كفراشتين لفتهما السعادة .

فتحتُ الباب ، دخلت ، كانت الشقة تمتليء هواء راكدا ، توجهت إلى النافذة ، ما رأيك أن نجلس في الشرفة ، حيث الهواء الطلق ، أومأت بالموافقة ، ذهبت ثم عدت بالشمبانيا وحبات الفستق ، كان الطقس خرافيا ، ستكون الليلة ليلة من الجنة .

أطرقَتْ، ناديتُها : أحلام ، حبيبتي ما بك ؟ كان صوتي مسموعا هذه المرة ، وما كدت انتهي من النداء ، حتى سقط كيس على رأسي من شرفة الشقة الجاثمة فوق شقتي ، صحوت من الشرود الذي إنتابني لحظة ، تفحصتُ الكيس ، كان مليئا بقشور حبات الفستق ، نظرت إلى فوق ، كانت جارتي ، الفتاة المشتهاة أحلام ، التي طالما حاولت التودد إليها، ترمقني من فوق، ثم ابتسمت وقالت : خرجك !

القرط الذهبي

بعد أن دبت السمنة في أوصالها ، وصارت تجلس على العتبة الأمامية لبيتها الذي إتسع وتميز في الحارة ، وقت الضحى ، بعد أن تعلو شمس الصباح ، تفترش غطاء وتبدأ بحفر ثمار الكوسا ، المتكومة في الوعاء أمامها ، وقد شمرت يديها اللتين تضطر إلى رفعهما بين اللحظة والأخرى . لتعيد تثبيت أساورها الذهبية إلى ما بعد المرفق ، تحيط بها هالة من الزهو والارتخاء ، تخترقها نظرة مجاورة متلصصة ، تنظر إلى الذهب في يديها وحول جيدها ، فترى جسدا متصلبا مازالت غلالات طيفه الميتة تتأرجح على سطح المعدن الوهاج .

ظلال الموت تفرض حالة من السكون ، وجواً من الرتابة ، التي تسمح للسيد أن ينسل بهدوءٍ ، خالٍ من القلق ، ويؤكده التكرار ، فيدس يديه في جيوب الجسد الممدد بتصلب الموت ويتحسس صدرها ، ليس بهدف المتعة الجنسية ، وحين تفلت منه التفاتة إلى الوجه النضر ، يبتسم بخبث ، ثم يمد يده فيسبل الجفنين ، وهكذا يقوم بتجريده مما لديه من ممتلكات .

الذهب لا معنى له دون يدين أو عنق ، والحي أبقى من الميت، وأن يرافق الحلي جسدا بضّا زاهيا وضاجّا بالحياة ، أمتع من أن يدفن مع جسد ميت ، لكنه على كل حال يرى نفسه مغتصبا على مرفقي وعنق السيدة خديجة .. آه منك يا خديجة ، لم تعد كنوز سليمان قادرة على إشباع نهمها للذهب ، كانت البداية على شكل لقيه ، قلنا جاءتنا من عند الله ، أفرجت حاجتنا إلى شراء الغاز ، ثم الثلاجة ، ثم التلفزيون .

وحين صارت أمورنا كمثل حال الناس من حولنا ، صار بمقدورنا أن نشتري غرفة النوم ، التي ما استطعنا أن نحلم بها يوم زواجنا ، ثم طلبت الفيديو والبيت الملك ، الجديد ، الواسع ، ثم غرف الأولاد ، ثم السيارة ..

وانفلت الحبل على غاربه ، حتى صار لنا رصيد في البنك ، وصرت مسؤولا عن ثلاجة الموتى ، التي بدأت فيها عاملا مسكينا ، حافظ على المهنة الموروثة ... آه عشر سنين ابتعدت بنا عن أيام الجوع والعري واصطكاك الأوصال أيام البرد ، وصرت الآن سيدا يا ديب يا ابن الحانوتي ، لا ينقصك شيء سوى أن تعود إلى تل العفار ، الذي خرجت منه يوما جائعا ، وهربت بخديجة ، بعد أن رفض أبوها "المقلعط" أن يزوجها لك ، دون مهر . كنت تنظر إلى حقول الفلاحين ، فتتحسر ، وتصاب بالمرارة، إلى أن دفعك الحب والفقر أن تترك المكان الذي احتضن قبر أبيك .

كل ما كان لدى الزوجين الهاربين ، قرط ذهبي يتدلى في أذن خديجة، لم تتردد لحظة في نزعه وإعطائه زوجها ، الذي دفعه بدوره إلى الرجل العجوز الذي كان يجلس أمامهما في الحافلة المتجهة إلى المدينة ، وكان على حساب إيجار غرفة و"منتفعاتها" في الحارة التي احتضنت لجوءهما .

كان لمعان القرط لا يبرح مخيلة ديب الحانوتي ، طوال الأيام الأولى التي قضاها في البحث عن عمل إلى أن حطت به الرحال عاملا في ثلاجة الموتى الملحقة بالمستشفى العمومي ، ومازال يذكر ذلك القرط الذي كان يتدلى في أذن المرأة المتمددة ، حين دفع الممرضون بسريرها إلى "ثلاجته" ، وصار يفكر فيه ، حتى واتته اللحظة المناسبة ، فتسلل ونزعه من أذنيها ، وعاد فرحا إلى زوجته، فقد استطاع أخيرا تعويضها .

وتواصلت حكاية تعويض الزوجة الوفية ، وبعد أن "طهق" ديب من معاملة الأوقاف له ، ومن ترددهم في إعطاء الموافقة على التكفل بتكفين ودفن جثة مجهولة ، لمعت في رأسه الفكرة ، فباعها إلى طلبة التشريح في كلية الطب ، فحقق فائدة مزدوجة للأوقاف ولزوجته ، ثم توالت عليه الزبائن التي تطلب أعضاء لمرضى ، وجثثاً لطلاب .

وصارت عادة عند ابن الحانوتي ، أن ينسل إلى غرفة الموتى، وتطورت الحال به ، فصار يقوم بتفتيش جيوبها ويتحسس صدرها ، بعد أن يخلص ما بيدها من ساعات وخواتم وأساور، إن كانت الجثة لسيدة . وفي يوم أبدى استغرابه من ورقة ، كانت مدسوسة ، في جيب قميص رجل ، دهسته سيارة ، فقتلته ، وبعد أن همّ بإلقائها ، فكر بإعادتها إلى مكانها ، لكنه في اللحظة الأخيرة ، إقترب بها من الضوء ، وبدأ يقرأ ، شعر بلذة لكلمات العشق فيها ، ثم بدهشة دفعته إلى الفكرة باستثمارها ، حين قرأ الإسم ، إنه كان لإمرأة مشهورة وثرية .

ومازال ديب في أعماقه ، يعترف ، بأن أقسى فعل قام به ، هو ذاك الترتيب للقاء المريب بين رجل عاشق ، لم يتمكن من نيل صبوته ، من المرأة ، التي ظل طوال حياتها ، يشتهي التحدث إليها ، وحين ماتت فجأة ، جاء لأكثر من إلقاء نظرة الوداع الأخيرة !

لقد اقتربت من عتبات الشيخوخة يا ديب ، وانقضت عشر سنين ، ومازال ذلك الموقف يؤرق راحتك ، حين قمت بإخفاء دليل براءة عز الدين ، المتهم بحادثة قتل ، ذهب ضحيتها ، القتيل الذي قمت ذلك اليوم ، بالسطو على ما في جيوبه ، وخفت من إبراز ذاك الدليل ، مخافة أن تسأل عما كان لديه من نقود .

صحيح أن سنوات السجن الطويلة ، أبعدته عن عالمك ، لكنه لابد أن يخرج يوما ، فماذا عساك تقول له حينها ، لا لا لن تقول شيئا ، بل ستفعل ، ستعرض عليه مبلغا من النقود ، وإن رفض ، فستقوم بقتله ، أن تتغدى به قبل أن يتعشى بك .

أن أقتله ؟ أصير قاتلا بعد أن كنت مجرد لص ، لص ظريف ، نعم لص ظريف ، فماذا ينفع القتيل ماله بعد موته ، وما الفرق عنده بين أن آخذه أنا أو غيري من أقربائه ؟

أنا لا أسرق الميت ، بل أسرق الأحياء ، الذين هم على الأغلب يستحقون السرقة ، وربما أنني لا أسرق حتى ، فهم لم يصيروا بعد مالكي أموال الميت ، بل ربما أقوم أحيانا بتقديم خدمة له ، فربما كان على خلاف مع ورثته، حتى لو كانوا أقرباءه . كل هذا شيء وأن اقتل شيء آخر . لكن إذا كان لا خيار لك ، فإما أن تكون قاتلا أو تكون قتيلا ، فأيهما تختار .. سأحاول أن أقنعه بالمال .

لمع القرط مرة أخرى في مخيلته ، فلاح له بالحل .. آه ربما كانت زوجته بحاجة إلى قرط ذهبي ، حينها لن تكون هناك مشكلة .

رجع الـرؤى

لم تكن الطريق شاقة وطويلة فحسب ، بل وموحشة أيضا ، لدرجة أن قلبه بدا إليه مربوطا بآخر شعاع مضى للشمس الغاربة وراء الأفق ، والتي كانت لتوها ، بالرغم من ميلانها بإتجاه الغرب ، سببا للزوجة والضيق اللذين إنتاباه ، وهو الذي بدأ رحلته بقدر ما من الغبطة ، التي ترافق مستكشفا أو راحلا فضوليا ، وليس جنديا ذاهبا إلى الخدمة الإجبارية ، في موقع متقدم ، تغلغلت في أوصاله حال الترهل ، بعد طول انتظار ممضّ .

رغم ذلك ، واصل سيره يرافق الهسهسات والوشوشات ، وزقزقات العصافير ، يشاطرها بين فينة وأخرى بترانيم بدوية ، كان يحفظها منذ أيام الطفولة ، يغذُّ خطاه باتجاه الموقع المجهول ، الذي لم يعد على أي حال ، سوى على بعد مسير ساعة أو إثنتين ، يتطلع إلى لحظة أولى ، حين يستقبله الرفاق مرحبين ، فيجلس وسطهم يحدّثهم عن الدنيا ، التي غادرها وراءه ، وعن الناس الذين يمارسون حياتهم ، ويكادون ينسونهم في مواقعهم ، يأكلون ويشربون ، ويتسامرون ، ثم يندسون آخر الليل في فراش دافيء ، مع صحبة أنثوية طازجة.

مع كل خطوة باتجاه الغرب ، صار يهييء نفسه ، كي يكون المحتفى به، من قبل القابعين هنا في برية مجهولة ، يمضغون الانتظار والنجوى ، يحدثهم عن طراوة الأحياء ، وعن الغرف المضيئة ، حتى إذا ما مرت الأيام ، ودارت دواليب الإنتظار ، تشهّت روحه نظرة الأنثى ، وموعدها المدبر في الخفاء ، أو ساعة التجوال على غير هدى بين الحوانيت والمقاهي ، في المساءات العجولة .

كم من الوقت سيمضي قبل أن يقوى على اقتناص لحظة الخدر البدائي ، مرة أخرى ، بين تلابيب "الرواق" ؟ هاله الأمر ، فاختلجت جوانحه، وتقلصت عضلات صدره ، وتتابعت أنفاسه ، فتمنى طلة الأنوار كما الأيام الخوالي ، يسكب النار في البلعوم ، فتهدأ ثورة ، تعددت أسباب توهجها بين الجوانح .

لن يطول بك المسير ، يا أيها الولد المكبل بالرؤى ، واستباقات المراحل، والتوقع والتوجس من قادم الأيام ، فلتحفظ عليك عقلك ، يا أيها الرجل الذي سطرته أوامر كسلى ، ودبجته تعاليم الصرامة في الزمن الرخي ، بلا هوى . ماذا لو إنفقحت حوانيت الظلام في العتمة القصوى ، أو ماتت الطرقات التي تفتر عن إحتمالات التردي ، أو هوت الهواجس من بؤرة الرأس إلى أسفل الدنيا؟ هل كانت "رواقاتك" تغلق بابها ؟ أو تهدأ الخلجات في صدرك ؟ أو تهمد الأوهام والأحلام والأنغام بين الثنايا والحنايا ، والفتافيت المبعثرة في كل ذرة حس من خلاياك ؟ أم ماذا ؟

لا يجيب على التساؤل ، لكن خطوا فضوليا مضى ، وارتخت همة المستكشف الأولى ، تهاوى على ركبتيه ، ورغب ببرهة من راحة البال ، فجلس ، ثم ألقى برأس مثقلة ، بين كفين مرخيتين ، ولم ينتبه إلى ما تعطل مما كان مثارا في كل أنحائه .. غابت الوشوشات ، لكن شيئا يدل على حياة ، بدا له، يشق خفيضا هالة الصمت .. توجس ، ثم إنتبه ، وصار ينصت ، فعاود نصب قامته ، ولحظة بعد أخرى صار ينقل خطوه ، صوب الذبذبات ، القعقعات ، أمواج التردد .. ثم تجاوز تحدر المرتفع ، فرأى نقاطا مضيئة ، بدت نجوما خفيضة ، أو مشاعل ينشق عنها صدر الظلمة الدائرية ، يشتد لمعان البريق منها ، مع كل خطوة إضافية، فغذّ الخطى ، باتجاه المعسكر ..

شيئا فشيئا ، صار الكيان الإنطباعي ، الذي تشكل مع الخطو ، واللهاث ورجع الصدى ، يرى أناسا يرقصون ، يتصايحون ، ويدبكون ، فدون أن يقوى على ضبط حاله ، هرول ، حتى إذا اقترب من محيط التحلق ، ألقى متاعا ثم شبك ذراعا بذراع مرمري ، وأطلق لكل كوامنه العنان .. حتى إذا مضى كثير وقت ولم ينتبه ، وبدأ تجمع العرس بالإنفضاض ، تطلع إلى الوجه الصبوح ، وصبّ في نظرة

نشوى ، كل معاني الغرام ، وما كان سواه يتمنطق واشيات العساكر . فصحا من غفلته ، وعاد إليه رشد غفا ، فوعد ومنّى .. ثم تابع سيره ، بهمة كانت قد غادرته .

بدت له دلائل الثكنة وجهته ، ثم فوجئ بصوت ، هز أوصاله ، قبل أن يرد بكلمة السر ، فهب إليه ظل ، تفتحت عنه أوراق العدم ، قاده بعد التصافح ، إلى قلب المقر .

وفي خيمة كالحة ، حيث سيأوي ، كانوا في انتظار أحاديثه عمن ، يهجعون وراء الأفق ، لاذ بالصمت ، تذكر حكواتي "النوفرة" ، ثم إنفتح الفم ، الذي إنغلق طوال اليوم ، بالسؤال عن الجيرة المؤنسة ، وعن فتياتها اللواتي يقطعن وصف أعتى خيال ؟ ثم تدفق حلو الكلام من شاعرية صبّ ، عشق للتو صحبة ناعمة . .رنا الصمت ، وتطلعت عيون في الظلام إلى بعضها ، ثم علا التساؤل سمر الجباه !!

كفوّا على غير عادتهم عن الإستماع لوافد قدم من وراء الأفق ، وضرب أولُ كفا بكف ، ثم إنسحب ، تفوه ثان : أيعقل ؟ ثم إنسحب ، وثالث قهقه ملء شدقيه ، ثم إنسحب ، ورابع أطلق ساقيه للريح خارجا. وآخر قال : لا عليك ، رفيقي نكمل غدا .

توسد ساعديه ، ثم حملق في وجه القمر ، وغفا على آخر رفة رمش ، مؤملا الروح ، برقصة حب تهب على روحه في المنام .

اختلاج مفــاجئ

الصمت الذي يلف المكان ، بدا مثيرا للضجر ، بل وأكثر من ذلك ، بدا لـه كأنشوطة ، تلتف حول عنقه ، أو كبلاطة قبر ، تجثم على صدره ، الوحدة قاتلة ، والأيام تفر كقطرات ماء من بين أصابعه ، وتذهب معها متعة ممكنة ، والرتابة مملة ، تثير الحنق والرغبة العارمة في التمرد .

تطلع حواليه ، فلم ير غير كتب مكتظة ، خالها للحظة ، تتهيأ للسقوط فوق رأسه ، تلك التي سكنتها ، وعششت فيها كل تلك السنين الطويلة ، الضيق الذي إنتابه ، والذي جر معه غلالة الكآبة ، دفع إلى رأسه التساؤل الذي يداهمه كل مساء ، في مثل هذا الوقت ، أيبقى يقتل وقته في القراءة ؟ أم يخرج على غير هدى ، هائما في الطرقات المحايدة ، دونما هدف محدد؟

في هذا المساء بالذات ، إنتابه حنين عارم لأيام الشباب التي مضت، فنهض ، كمن مسّته أفعى ، عن مقعده ، وذهب من فوره إلى الخزانة التي يحتفظ فيها بأوراقه وأشيائه الخاصـــــة، وجلس بينها ، ثم أخـــذ يقـلب أوراق الذكرى ..

عالمٌ فتيٌّ ضاجّ بالحياة والصخب ، تراءى له ، حتى كاد أن يلمس تفاصيله بأطراف أصابعه ، التي توترت لحظة أمسكت ببطاقة مازالت ، رغم لونها الكالح ، تفوح بعطر الصبوة الأولى ، النافح من رسم الغرام .. قلّبها .. ثم قرأ الإهداء .. انتفضت عضلة القلب ، وفي لحظة كان يدسها في جيبه ، ويخرج بعد أن خطرت له الفكرة المراهقة .

سار على قدميه ، يغذّ خطاه ، كفتى بدا على عجلة من أمره ، يصارع الزحام ، ويبدو شاهدا محايدا على الضجيج الذي ملأ الشوارع ، حتى استوقفه الصوت الصاخب ، المنطلق من محل للتسجيلات ، إنتبه إلى المغني الذي يجهله ، فشعر بالتعاطف معه للمرة الأولى ، وبتقبل إيقاعاته .. وفي اللحظة الأخيرة نجح في كبح رغبة مفاجئة في الرقص .. واصل ، حتى إذا ما صادف بائعة قلائد الفل ، إندفع نحوها ، واشترى عقدا خرافيا ، ضمه بين كفيه ، وغمر أنفه بينهما ، ثم أخذ يعب الهواء ، كمن يتنفس للمرة الأولى .. أو الأخيرة .

كان الفتية يمرون من حواليه بقراطيس الآيس كريم ، فتوجه من فوره إلى البائع ، واشترى واحدة ، بدأ في التهامها ، كوافد من صحراء حارقة .

تابع الرجل دورانه ، دون أن يقوى على قهر التردد ، الذي داخله ، إلى أن صار وجها لوجه ، أمام مكتب الهاتف العمومي ، فغالب إضطرابه ، وتابع نشوة المغامرة ثم أدار القرص بالأرقام التي كانت بالبطاقة .

رد عليه صوت طفليٌ خاله مألوفا لديه ، لكنه إنشغل عنه ، وسأل عن الآنسة "سالي" ، تساءل الصوت :

سالي مين ؟

إنتبه إلى أن خطأ محتملا ، يمكن أن يكون قد وقع ، فأعاد نظرة خاطفة إلى البطاقة ، وفي اللحظة ذاتها ، كان صوت إمرأة يتابع الهاتف ، فاعتذر مستفسرا ، إن كان الرقم صحيحا أكدت له المرأة صحة الرقم ، ثم سألته عمن يريد بالضبط . فأجاب بأنه يريد الآنسة "سالي" ، ثم استدرك قائلا بل السيدة "سالي" (لابد أن تكون آنسة تلك الأيام ، قد تزوجت) !!

ـ يا أخي ، ربما أنك تقصد السيدة سلوى ؟

ـ نعم ... نعم أريد السيدة سلوى

أجاب

ـ لكنها الآن في بيتها

ثم أعطته رقم هاتفها ،

أدار القرص ، وأنصت للرنين ، الذي كان يزيد من دقات قلبه، منتظرا أن يجيبه صوت مخملي ، غاب عنه طويلا .

ـ نعم ... من ؟

ـ مساء الخير .. سالي !!

صمت الطرف الآخر، فاستدرك , قائلا : قصدي، سيدة سلوى، ربما تكونين قد نسيت صوتي، لكنني معرفة قديمة، وأريد أن أراك لأمر هام .

ـ لكن .. يا سيد ..

قاطعها : لن آخذ من وقتك كثيرا ، ستعرفينني ، عندما ترينني ، أنا بانتظارك في كافتيريا الشاطئ الأزرق .

ثم تابع قائلا : إلى اللقاء

توجه على عجل إلى الشاطئ الأزرق ، وتطلع إلى الطاولة التي طالما شهدت مواعيده الحلوة ، قام بحجزها ، ثم جلس يدخن بعد أن وضع عقد الفل، كعادته القديمة أمامه ، وأخذ يتطلع مرة إلى صفحة البحر ، المتلألئة بانعكاسات الأضواء الساقطة عليها من الفنادق المجاورة ، ومرة أخرى إلى البوابة ، فيما المظلة فوق الطاولة ، تحجب الضوء ، وتضفي جوا شاعريا مضاعفا .

طال انتظاره ، وهو يرقب البوابة إلى أن توقفت سيارة أجرة ، نزلت منها سيدة بالغة الأناقة ، تضع على كتفيها شالا ، كان يحبه ، وكانت هي تعتز به لأنه كان هديته الأولى لها .. ما إن رآها ، حتى شبَّ على قدميه ، وأندس في زاوية الركن البعيد من الصالة ، وقد أذهلته المفاجأة ..

لحظة وكانت السيدة تعرف مكانها ، وتتوجه إلى ذات الطاولة ، ثم تأخذ مكانها ، وكعادتها القديمة أيضا ، تناولت عقد الفل ، ثم وضعته حول عنقها ، وتلفعت بشالها الأزرق .

بعد لحظة ، كان ينضم إليها ، ملقيا تحية ناعمة ، تطلّعت إليه ، فانتابتها دهشة ، هزّت كيانها ، لكنه ، مد يده مصافحا وقال :

ـ لا عليك ، أخذتنا الأيام ، وفرت منّا دون أن ندري .. ثم سأل : ليمون أليس كذلك ؟

احمرّت وجنتاها ، وأرتد إليها صبا ، ما رآه منذ عشرين عاما ، وما كان الليل بطوله ، قادرا على أن يشبع نهمهما إلى الهوى والسهر .. وبعد أن انتصف الليل ، قالت :

ـ مولاي ، لقد أدرك شهرزاد الصباح ، وأعتقد أنه وجب علينا أن نعود ، فلا بد أن يكون الأولاد الآن قد ناموا .

كان لا بد له من أن يوافق ، فنهض ، ومد ذراعا شابة ، تأبطتها السيدة بغرام فتي ، ملتصقة بجسد وجدته حارا وطاغيا ومثيرا ، رغم أنه قد رافقها طوال عشرين سنة .

روعة الأزرق

كانت الشمس قد غطست في البحر لتوّها ، وكان الزحام يثير في نفسه ألفةً يرغبها ، وقدماه تتهاديان عبر الإنسياب الذي يشق المدينة إلى نصفين متقابلين ، عبر خط من الوهم ، المصحوب بالجلبة الهادئة والصحبة العامة .

كان وحيدا ، وإن كان يتوقع رفقة تداهمه في أية لحظة خاطفة ، يتنقل بين الواجهات المتراصة ، التي تحتوي كل ما يشتهي ، دون أن يقوى بالطبع على تخطي العتبة الفاصلة ، فيكتفي بالتلصص المجاني ، غير آبه بحركة الذاهبين والآيبين ، يتطلع بعمق عبر الزجاج ، الذي يضفي لمعانه المضيء رونقا إضافيا ، على محتوياته المتعددة .

وكان أيضا ، لا بد لتلك "المانيكان" أن تداهمه بثوبها الملائكي ، وبقوامها الممتشق ، فتأمل كل كيانها ، حتى أصابع القدمين ، ثم غامت الدنيا ، ولوحت العرائس مناديلها لفارس حملته الأكف ، على أطراف الأصابع ، وتهادت المواويل كما في أغنيات الطفولة .

سحر الأزرق الدافيء ، كان صديق الصبا ، يزداد فتنة حين يطلق عصافير قلبه على شاطئ البحر ، في الفصل المخملي ، ثم مع الوقت صارت العصافير حماما طازجا ، يربط في ذيلها خصلة الشعر الناعمة ، وما تخلى عن لهوه الأزلي في مداعبة السماء .

الزجاج المضلع الأملس بياغته فجأة ، ويسحبه من لجة الأزرق ، ثم يضعه وجها لوجه مع زرقة صاخبة ، أربكته ، فدار نصف دورة ، حتى إذا ما صار في مقابلة الخيال المجسد ، تلعثم ، وكان أن تمتم في سره ، مستعينا بالإله. ثم استدار إلى المدخل ، وتوقف يرقب تفاصيل تحفة الآلهة ، حتى إذا فاجأته بالسؤال ، تدارك الأمر ، وغطس في غبطة نادرة .

ود لو طال المساء السماوي دهرا ، لكن التواعد كان يكفي لإغفاء لهفته الجارفة .. ثم كان اللقاء والحديث الذي يذهب العقل ، ويهصر تجاويف الفؤاد ، وكانت أنفاس روعة حين تهمس ، تبدو له عبقا من الجنة ، ما عادت الدنيا كما الدنيا ، ولا عادت الأيام كسابقاتها ، وصار العمر كرنفالا دائما ، حتى بات على قناعة ، بأنه لا بد من الاقتران الأبدي .. فطار في غدوه إليها، يفاتحها برغبته في الحلال !!

بعد دلال أنثوي وافقت ، فطار من فرحته ، وأخذ يرقص في المكان العام ، فشدّته وأجلسته قبالتها ، ثم جرته إلى الحديث في ترتيبات الأمر، وكان لابد له أن يسألها عن أهلها ..

استبد بروعة الكدر ، وغام الأزرق في بحره ، حين كانت الطفلة ، تغلق عينيها على آخر مشهد للعجوز ، التي أحضرتها قبل عقد ونصف ، إلى ذاك المكان .

مد يده حتى لامس أصابعها الباردة ، وشدها إليه ، وسأل عما جرى ، فانفلتت الدمعة ، بعد أن ترددت برهة في المآقي .. ثم أجابته عن حالها .. أصابته مفاجأتها بحالة من الأسى ،فنادى على النادل ، ثم دفع الحساب، ودون أن يلقي تحية الوداع ، غادر المكان على عجل !!

جـد ي

لم أنس وجه جدي عبد الدايم ، منذ مات عن ألف عـام ، قضـاها فـي جد واجتهـاد ، لتـأمين الحيـاة الحـرة الكريمـة ، لأبنائـه وأحفاده ، الـذين عدوّا العشـرات مـن البنـين والبنـات ، فـي آخـر إحصـاء لـه قبل الممات .

كنت أتطلع إليه ، فأراه مرتفعا ، أسـأله عن السـر ، فيقـول : أنهـا السـنين .. أسـتوضـح ، فيجيـب : ستنمو كل عام سنتمترا واحدا ، وبعد ألف عام ستكون بطول قامتي ..

سألته عن عمره ، فأجاب : ألف إلا واحدة ، وبعد سنة كان قد مات .

كنت أستغرب بياضه المطلق ، فأسأله : يا جدي لمـاذا أنـا شـعري أسـود ، وأنـت شـعرك أبـيض ، فيقول : أنت صغير وأنا كبير .

أعاود السؤال : ولماذا ينبت الشعر الأبيض في ذقنك ، وأنا لا ؟

فيجيب : أيضا لأنك صغير وأنا كبير ..

جدي كان يأخذني كـل مسـاء مـن يـدي ، ويشـرّق ، وعنـد حافـة القطـع الحـدودي ، يصـوب نظـرة حادة ويصمت ، أسأله ، عما يوجد هناك ، فيجيب : الأحبة .

أنت كبير يا جدي ؟ أسأله : أأنت في عمر أبي ؟ يضحك ويقول : أنا أكبر من أبيك ومن أعمامك جميعا .. أعترض وأقول : ولكن عمي حسن أكبر منك ، لا يا بني فكل هؤلاء أبنائي ، وقد أنجبتهم بعد أن صرت شابا ، وهل ستكبر أكثر ؟ يجيب بصبر : كل يوم يمضـي أتقدم فـي العمـر ، لكننـي لـن أتجـاوز هذا الطول ، الذي أنا عليه منذ عقود .

أسأله مجددا : وكم عمرك ؟ يقول : كثير ، ما يقارب ألف عام ـ وهل تـذكر يـوم كنـت بعمـري ؟ يقول بحماس : كأني كنت أنت .. ثم يتابع قائلا بجملة واحدة ، لا يوضحها : يرحم هذيك الأيام .

حين عدت من المدرسة في ذلك اليوم الجلل ، سـألتهم عن جدي ، فقـالوا : انـه سيسـافر . سـألت إلى أين ؟ فقالوا : إلى السماء .. نظرت إليه من شق الباب ، كان ممددا ومجللا ببياضه الناصع .

طالت سفرة جدي ، وطال شوقي إليه ، فصرت أجلس في الليالي المقمرة ، أتطلـع إلـى السـماء ، فأرى كتلا من البياض ، تتحرك باتجاه القمر ، أظنها عباءته ، فأستبشر بقرب عودته ، التـي تـتم فعلا فـي المنام .

وهكذا كنت أراه كل ليلة ، إلى أن أخذ الشيب يغزو هـامتي ، والـوهن يمتد فـي أوصـالي ، حتـى صرت جدا ، أتمدد في فراشي كل مسـاء ، فـأراني كتلـة مـن البيـاض ، تسبح فـي السـماء ، عسـى أن تتـاح لي فرصة الإلتقاء بذاك الذي مضى ، وما عاد منذ أربعين سنة .

وفـاء الـسيـدة

تمطت السيدة وفاء في فراشها ذاك الصباح ، وودت لو كان اليوم هو يوم إجازة رسمية ، لتستمتع بكل لحظة فيه ، وتعيش ساعاته الأربع والعشرين، بدقائقها الستين وثوانيها وثوالثها اللامتناهية ، وعلى مهل نهضت ، تستقبل صباحات الخير المعتادة ، من الزوج والأولاد ، في انتظار ساعات ما بعد الظهر والمساء ، التي ستشهد لحظة اعتراف الجميع بها ، ملكة البيت المتوجة .

لم تذكر السيدة شيئا جديرا بالإهتمام تخللته ساعات عملها الرتيبة، غير إيقاعها البطيء المثير للملل ، رغم ما هو معروف عنها من حيوية خاصة ، ومن مبادرات عملية ، لا تقابل من المسؤولين بأدنى بادرة إهتمام ، مردها ما تتميز به شخصيتها ، من إحتداد يعود إلى التربية الصارمة ، وإلى الجرأة المكتسبة ، من تقاليد وقيم العائلة الفلاحية ، التي لا تقيم وزنا للمجاملات التي لا تخلو من نفاق .

ورغم أنها توقعت ، أن يبادر زوجها ، في ذلك اليوم بالذات ، بدعوة العائلة ، إلى طعام الغداء ، في مطعم ما ، يريحها من عناء التفكير اليومي، فيما يمكن أن تعدّه من طعام ، إلا أنها شغلت بالها ، ككل يوم بذلك ، ولم تعوّل كثيرا على إمكانية التوقع، التي طالما علمتها التجربة ، تجنبها ، خصوصا في العشرة أيام الأخيرة من كل شهر .

ودّت من أعماقها ، أن تفاجيء الأولاد ، بطبق "البيتزا" الشهي الذي يحبونه ، لكنها تذكرت أنها قد فعلت ذلك منذ يومين فقط، وهي ممنوع عليها ، أن تكرر كثيرا وجبة الطعام الواحدة ، تجنبا لردة فعل الزوج حاد الطباع ، المعروف بمزاجية إعتادتها طوال تلك السنين ، وباتت تتقبلها كقدر عصي على التبدل .

لم تنتبه السيدة إلى زميلها القاص ، الذي قام بمتابعة انفعالاتها ، في ذلك اليوم ، وإلا لكانت قد تحفظت قليلا ، ولكانت قد سعت إلى التقليل من إشهار توترها وشرودها البيّنين ، ولقللت أيضا من تناول فناجين القهوة ، التي ما توقفت عن شربها بنهم ، رغم أن إستحقاقات العمل ، ما كانت تقتضي نصف تعدادها .

بعد وقت كانت ساعات العمل اليومي قد انتهت ، فلملمت السيدة هواجسها ، وأغلقت أدراج مكتبها ، على شؤونها العملية، وعادت على عجل أدراجها ، إلى حيث شؤون البيت والأسرة.

لحظات وكان الأولاد يعودون إلى البيت تباعا ، ومعهم هداياهم الرمزية وتهنئاتهم الحارة ، فتستقبلهم بقبلاتها الصادقة على جبهاتهم البريئة ، وتحضنهم واحدا تلو الآخر ، إلى أن حل المساء .

أمام الشاشة الفضية ، جلس الجميع كعادتهم كل ليلة ، ينتظرون مسلسل السهرة ، أما هي فتوقعت فيلما لـ "شادية" ، لا بد أن تبثه فضائية عربية ما بالمناسبة .

وحين حل موعد نوم قرة العين ومهجة الفؤاد ، إندست بينهم كعادتها المسائية تحكي لهم حكايا الجدّات التي تلقتها أيام الطفولة ، وكان عليها منذ أن وعى الولد الأول متعة الحكاية، أن تقوم بهذه المهمة أيضا ، نظرا لأن المنفى غيّب أيضا ، عن الأولاد جدتيهما .

دون تردد ، وفيما بدا أنه اتفاق مضمر بينهم ، طلب الأولاد منها أن تحكي لهم قصة عن "عيد الأم" ، ترددت لحظة ، ثم ما كان عليها سوى أن تعمل خيالها قليلا ، وأن تتقمص شخصية زميلها القاص ، فحكت لهم عن الجدة "أم الخير" ، المرأة المسنة ، المقيمة وحدها في "حارة الفراش" التي ظلت تنتظر صباح يوم كهذا ، أن يهاتفها أولادها بالتهنئة ، حتى أغرورقت عيناها بالدموع ، وبعد أن أكثرت من الدعاء لهم ولأبنائهم واحدا واحدا ، بعد صلاة العصر ، إندفع إلى بابها كل أولاد الحارة مهنئين ، ثم كان الرنين المستمر للهاتف ، من أقطار تقع في قارات الدنيا الست .

انفرجت أسارير الأولاد للحكاية ، وناموا بهدوء على نسيج أهدابها، أما هي فقد قفزت على الفور من سريرها ، وهاتفت على عجل أماً، إغرورقت عيناها ـ ولا شك ـ وكادت هي للحظة بدت كالدهر ، أن تقع في محظور السهو عنها ، في زحام هواجسها بين البيت والعمل.

مداهمة التضاد

نوبات الصداع المتواصلة تكاد تفجر الرأس، الذي ما يلبث أن يستسلم بكل بساطة الأشياء الموزعة من حوله ، والتي لا تثير سوى الضجر والكآبة ، إلى حلها الرخو ، ومن ثم يحلق في ملكوت الأثير ، حيث يسبح في فضاء لا ينتهي ، ولا يخضع لكل معايير الصخب العبثي المضطرم في أجندته اليومية .

وهو ، رغم حبه المتأصل للقلق ، إلا أنه صار رويدا رويدا ومنذ أن وطأت قدماه أرض المخيلة ، يخضع لسطوة الإنسياب الهاديء في المياه العذبة، يتطلع إلى الصمت الكامن تحت قشرة الإرتجاج ، فيرى ذاته الميتة ، ملفوفة بالبياض ، كفراشة سكنت في بحر الرحيق الدبق ، تهجع بالصلاة التي ترتد منها .. إليها ، دون أن تحرك ذرات الهواء الراكدة من حولها .

منذ وقت والفتى الأهوج يلهو بالسبات ، الذي يحيل إلى الموت أحلام الصبا ، ويافعات الخيال ، ويعبث بتزجية الوقت إلى مثواه ، وينتظر دونما لهفة خاتمة الحكاية .

هكذا تتابع الأيام والأيام ، دون أن يقوى على فكاك من أسرها الشرطي ، غادرته كل عاداته الليلية الطازجة ، وهجرته كل أحلام الصبا وصبوات التلهف المخملي . التي طالما طبعت أيامه بالحلاوة وإحتمالات التقبل وإرتعاشات الحياة ، عند نقطة إنطلاقها الأولى .

في هذه الليلة ، وعلى حين غرّة ، ما اعتادها منذ وقت مضى ، دهمته غيمة مفاجئة ، أخذته في برهة مقتضبة إلى رحلة لا قرار لها ، حين إنشق صدر الأفق من تلقاء نفسه عن قرينة مشتهاة ، وقد تشكلت من رؤى متمنعة ، ومن رغبة طاغية ، ليحط على رضاب شفاهها ، كاهله الذي أثقل عليه أيامه ، وزرع في أوصاله الخدر البليد ، ونثر بين أعصابه الموات ، ودّ لو تتسع اللحظة لكل رحلة العمر ، التي إستلّها القدر من بين إحداثيتيه : الرحم والردم .

ما أروع الأنثى حين تداهمك ، بعد أن يطول اشتهاؤك ، وما أجمل اللحظة حين تمتد كدهر من السنين الصاخبة .

لكنّ ليل الفجاءة لا ينتهي عند حدود الإشتهاء ، وعذب اللقاء ، فكل ما سكن من هاجس الأحلام يضطرم في اللحظة التي ترى فيها عيون التشكك ذراعا فتية تطوق كتفا رافقتك طوال سنين .حينها يفور الإنبعاث الذي ركد بأكثر مما ينبغي ، وتنفلت شراهة التملك إلى غيّها ، وتطبق في لحظة فارقة ، مخالب الموت حول جيد الطريدة .

تصحو من الأحلام والأوهام ، وتسقط عنك نثارات التضاد ، وتتكور مهزوما في محيط الدفء ، الذي يعيد حالة ما قبل "الفزع" إلى طبيعتها، ثم تعاود نوما هانئا ، لا يتوقف إلا عند حدود الموت ، الذي لا يستحق حتى صلاة الترحم أو تراجيع الإله .

ثلاث قصص قصيرة جداً

إشتهـا ء

رغم افتراقنا منذ أكثر من عامين ، مازلت أذكر ذلك الرجل الفتي ، الذي ما كان يكف عن مغازلة النساء ، والتعبير عن إشتهائه الدائم لهن ، رغم بلوغه الستين من العمر ، وبالرغم من رفيقة عمره التي تصغره كثيرا ، وتبدو كسيدة ناضجة ، تثير رغبة وقورة ، من الممكن لي أن أمعن في وصفها ، لولا أنها زوجة صديقي الوحيد ، في هذه الدنيا ، الذي يبلغ عمره ضعف عمري ..

كان يتأفف ـ ثم يفضفض لي عن غيرة رفيقته السيدة "ناضجة" ، هكذا كان يقول أمامي ساخرا مني ومنها ، ثم يستدرك قائلا : أنت وضعك أرحم ، فما زالت زوجك صبية ، لم تشتعل بها نار الغيرة المزعجة .

ثم يحدثني عن كل النساء اللواتي حلم بهن .. بالأمس ، وبدرجة خاصة جدا ، تذكرته بقوة ، حين تذكرت في اللحظة الأخيرة ، زجاجة العطر وباقة الورد ، قبل أن يقفل السوق ، لأعود بهما إلى زوجتي ، مهنئا بذكرى زواجنا العاشرة ، ومفتشا بقوة عن فتى من بين أصدقائي ، أحدثه عن اشتهاءاتي المتمنعة لكل نساء الدنيا ، عدا واحدة ..

حكمة

كلما صعدتُ أو هبطتُ درجات السلم ، المؤدي إلى شقتي في الطبقة الخامسة ، من تلك البناية الكالحة ، إستبد بي الفضول لرؤية تلك الصبية، التي ما أن تشعر بخطواتي ، حتى تغلق الباب .

أصعد وأهبط وأكاد أرى كل خطواتها ، وحبات الهواء التي تدخل صدرها .

البيوت أسرار ، هذا ما يقوله دائما مختارنا المبجل ، فلا أعلق ، رغم ما ينتابني من رغبة عارمة لا توصف ، لإدراك بعض هذه الأسرار ، التي تغفو على طيّاتها بيوت حارتنا .

على رجع صدى خطواتي ، تغلق الباب في اللحظة المناسبة ، ليستبد بي الشوق لإدراك كنه وجهها على الأقل .. أتوقف عسى أن تكون قد أمنت لذهابي ، فعاودت فتح الباب ، أتمهل ، لربما ؟

لا بد أن تكون هي قد رأتني ، وليس من العدل أن لا أراها ، آه لا بد أن تكون بالغة الجمال ، رشيقة القوام ، فتية الصبا ؟ بعد مائة عام من الضجر ، باغتها ، حيث لم تسعفها خفتها المجربة باغلاق الباب ، في اللحظة المناسبة ، لأنني كنت هذه المرة ، أنسل كلص ، وحين رأيتها ، مضغني دوار مفاجئ ، وانتابتني رغبة طاغية في التقيؤ .. على حكمة المختار .

مسؤول

يحدثني كل يوم عن سذاجة مديرهم المسؤول وعن عدم كفاءته ، بل وقلة أدبه التي لا تحد ، فهو يتدخل في كل أمر تافه ، "ويتمنظر" على الموظفين ليس كمجرد مدير عادي ، بل وكأنه وكيل وزارة أو أكثر ، وللحقيقة ، أنني أدركت بعد زيارة لم تطل ، صدق تشخيص صديقنا ، واجتاحتني رغبة في قتل هذا المدير ، حين رأيته ، ووقفت على مدى سطحيته وسذاجته.

ويحدثني صديقي كل يوم أيضا ، طوال الطريق المشترك بيننا ، إلى مقر العمل المتجاور ، عن أنه سيفجر اليوم بالذات قنبلته ، ويبصق في وجه هذا السخيف ، ليضعه في مكانه ، ويضع حدا لتطاوله على الناس المحترمين ، من الكفاءات مثله ، وفي آخر الطريق ، يمضي كل منا إلى مقر عمله ، وأنسى على الفور كلامه الذي يشبه كلام الليل ، المدهون بالزبدة .

في ذلك اليوم ، وإمعاناً منه في التأكيد على عزمه الذي لا يرد ، دعاني إلى مشاهدة الواقعة ، فذهبت يدفعني الفضول ، معه لتناول فنجان القهوة الصباحية في مكتبه ، في تلك المؤسسة الحكومية ،التي تحيطها هالة الرهبة.

بعد لحظات كان هاتفه يرن ، ثم كنت أسمعه يجيب :

ـ حاضر ، على رأسي ..

ثم يمضي دون أن ينتبه لوجودي ، إلى خارج المبنى ، ويعود بعد وقت بعلبة سجائر ، يدخل بها ، ثم يرجع إلى مكتبه من دونها ..

***

هذه القصص

ليست دعوة عامة للقراءة ، أو التمعن ، أو التحليل ،أو إثارة الجدل أو التحريض من أي نوع ، وهي أشبه ما تكون نثارا من البوح والتهويم ، الذي يترنح بين لحظة الجنون وتخوم العبث ، الذي تثيره المفارقة ، يسعى إلى الكلام، فتردعه الرغبة العميقة بالصمت ، ويقترب من التمرد ، فتعيده غرائز السكون.

المؤلف